الدبلوماسية الكنتية من خلال أحمد البكاي التنبكتي

البارة محمد الطالب

طالبة دكتوراه: مكونة التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

ملخص المقال:

يعالج هذا المقال دبلوماسية الشيخ أحمد البكاي شيخ الطريقة القادرية في تنبكت والذي يعد من الشخصيات الهامة في القرن التاسع عشر وأكثرها انفتاحا على الآخر حيث كانت تجربته مع الانجليزي (آنريش بارث) خير مثال على تقبله للآخرين وروحه الدبلوماسية القوية بالإضافة إلى أن مكانته الروحية مكنته بوصفه زعيما للطريقة القادرية البكائية في تنبكت من أن يلعب أدوارا كبيرة في تغيير الخارطة السياسية والدينية في بلاد السودان عبر نفوذه السياسي والعسكري وتصديه الفكري لخصومها التيجانيين واستخدامه نوعا من الدبلوماسية الثقافية تجسد في المناقشات العلمية والفكرية على شكل مراسلات، وإن كان الصراع السياسي والعسكري بين الطرفين أدى في النهاية إلى زوال تلك الدول الإسلامية التي كانت قائمة في منطقة السودان الغربي بما فيها الزعامة القادرية الكنتية في تنبكت لتصبح الساحة مفتوحة للاستعمار الفرنسي الذي واكب انهيار تلك الدول ليبسط سيطرته على منطقة السودان الغربي، إلا أنه أنعش المنطقة ثقافيا وأثراها علميا حيث كانت فترة الشيخ أحمد البكاي واحدة من أخصب الفترات التي مرت بها المنطقة على الصعيدين العلمي والفكري.

مقدمة:

إن الحديث عن أي شخصية سواء كانت دينية أو علمية أوهما معا يتطلب التعريف بها أولا والشخصية التي هي في متناولنا هي شخصية من شخصيات القرن الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي الشيخ سيد أحمد البكاي الكنتي التنبكتي وهو ابن الشيخ سيد محمد الخليفة ويعتبر الشيخ أحمد البكاي رابع مشايخ الزاوية الكنتية في تنبكت وله مكانته الثقافية والروحية الخاصة حيث اشتهر بمراسلاته الفقهية وسجالاته الفكرية في الذود عن طريقته البكائية القادرية والرد على مشايخ التيجانية كما تميز بانفتاحه على الأجانب وحمايته لهم مما سبب له البعد من زملائه في الطريقة قبل نظرائه التيجانيين وهذا ما أثرى عصره الثقافي قبل أن يصل الحوار الفقهي بينه مع التيجانيين في السودان الغربي في مرحلة من المراحل إلى طريق مسدود ولجوء قادة الدول الاسلامية في منطقة السودان الغربي إلى

حروب مدمرة في صراع كان الحدث الأبرز الذي شهدته المنطقة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والذي كان الشيخ أحمد البكاي من أبرز شخصياته.

ثم من ناحية ثانية لا بد لاستجلاء صورة هذه الشخصية من الحديث عن الأدوار المهمة التي اضطلع بها سواء على الصعيد السياسي أو الاجتماعي أو تراثه العلمي، وتأثيره الروحي وإشعاعه الشخصي. ويمكن تلمس هذه الأدوار من خلال الأعمال التي قام بها مؤثرا ومتأثرا بمحيطه الاجتماعي والسياسي حتى بوأته المكانة المرموقة التي احتلها في عصره وحتى بعد وفاته، وكذلك من خلال آثاره العلمية التي بقيت شاهدة على علو كعبه خصوصا في السجالات الفقهية والعقدية.

ويمكن القول بحق إنه من بين أكثر الشخصيات السياسية والروحية إشعاعا في القرن التاسع عشر ميلادي في منطقة السودان الغربي، ومن أكثر الزعماء حنكة ودبلوماسية من خلال المفاوضة في حل الصراعات والرسائل المشبعة بالسياسة والعلوم والمعارف الدينية إلى الفاعلين والمؤثرين في محيطه سواء في الشمال أو في الجنوب، بل وحتى خصومه الذين لجأ إلى الحوار معهم ومحاولة إقناعهم قبل أن يضطر لخوض صراع عسكري مرير معهم.

المحور الأول: أحمد البكاي وتأثيره الثقافي والوحي

1- مولده ونشأته: هو الشيخ أحمد البكاي بن سيدي محمد الخليفة بن سيد المختار الكنتي ولد الشيخ أحمد البكاي بن الشيخ سيد محمد في العام 1803م في بلدة المبروك وهي ضاحية من ضواحي مدينة تنبكت[1] التاريخية تقع إلى الشمال الشرقي منها. وتنتمي أسرته إلى قبيلة كنت العربية الأصل. وحسب شجرة نسبه التي نشرها بول مارتي إضافة إلى ما كتبه الشيخ أحمد البكاي في بعض رسائله المحفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس، فإن نسبه يقترن بالصحابي الجليل عقبة بن نافع قائد جيوش المسلمين التي فتحت الشمال الأفريقي في القرن السابع الميلادي[2].

وينتسب البكاي لقبيلة كنته العربية والتي تنتشر في معظم دول المغرب العربي وبلاد السودان الغربي، ولها مكانة تاريخية وسياسية وروحية ودينية وثقافية كبيرة.

---

[1]- مدينة من أشهر المدن في منطقة أزواد في الشمال المالي وهي مقر الزاوية الكنتية البكائية القادرية. (للاطلاع على تفاصيل أكثر عن المدينة التاريخية راجع: فيليكس ديبوا، تمبكت العجيبة، ترجمة: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، مراجعة: شوقي عطا الله الجمل، المشروع القومي للترجمة، ط1، 2003.

[2] - عمر عبد الماجد: الشيخ أحمد البكاي والحراك السياسي والديني في بلاد السودان الأوسط والأدنى منتدى السودانيز أونلاين أورغ.

يقول د. مصطفى بوضيف متحدثا عن أدوارهذه القبيلة المرموقة في نشر الاسلام في غرب إفريقيا:" ... على أنه كانت هناك قبيلة عربية واحدة كان لها أثر عظيم في إسلام الزنوج في منطقة جنوب الصحراء الكبرى ومنطقة النيجر الوسطى وتلك هي قبيلة كونتا (كنتة) العربية التي هاجرت في القرن التاسع الهجري من مواطنها في اتوات إلى أطراف تنبكتو ..."[1]

وقد ولد الشيخ سيد أحمد البكاي في مطلع القرنين الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي اللذان تميزا بتراجع قوة ونفوذ الخلافة العثمانية، وبوازي ذلك الانحطاط تعاظم قوة بريطانيا الاستعمارية، وهو أمر لم يفت شخصيتنا .كما سنرى . مما يدل على ذكائه الشديد واتساع اطلاعه وفهمه لمجريات الأحداث، كما تميزت هذه الفترة بترسخ قدم فرنسا الاستعمارية في شبه المنطقة؛ شمالا في الجزائر بإعلانها الحماية عليها، وجنوبا بتعزيز وجودها في الضفة اليسرى لنهر السنغال، تمهيدا للأطماع التوسعية باتجاه منبع النهر وحتى مصب نهر النيجر.

وفي هذه الظروف شب سيد أحمد البكاي تحت رعاية والده الشيخ سيد محمد بن سيد المختار الكنتي كما تلقى العلم منذ نعومة اظافره على جده لأبيه الشيخ سيد المختار الكنتى الذي درس عليه الشيخ سيدي الكبير وقد خاطب أبناء مشايخه ومن ذلك أنه خاطب سواد العيون ونزهة القلوب والذهون البكاي وحثه على الصبر في قصيدته التي مطلعها

تكلف جميل الصبر في كل حين... وعوده نفسا اشتداد ولين

وكذلك في قصيدة أخرى مطلعها

عماد الصبر منك يا سواد.... عراه يصدم فرقتك انهداد

كما يخاطب سيد أحمد البكاي وحماد بن سيد اعمر في هذه الأبيات:

إن تملئ العين من إنسانها البادي وعين إنسانها البكا وحماد

فاملأ شدوقك من أسنى السلام على كلا الحبيبين في جمع وإفراد

وقل وخير مقال المرء أصدقه إنـــي إلى لقياكما صاد[2]

---

[1] – مصطفى أبو ضيف أحمد: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، مطبعة دار النشر المغربية، الطبعة الأولى، 1982، ج 2، ص: 269

[2] – هارون ابن الشيخ سيديا: الأخبار المدون في اخبار الموريتانيين ومن جاورهم من النواحي المحيطة بهم، الشركة الإفريقية للطباعة والنشر، د، ن 1998، ص، ص 150-153.

وقد ترعرع الشيخ البكاي في هذا الوسط الأسري الذي تميز بالتربية الصوفية ونشر العلم والكرم ودماثة الخلق ولذلك كان، شأنه في ذلك شأن جميع آل الشيخ سيد المختار الكنتي، يحظى بالتقدير والعرفان من الجميع، يقول الشاعر محمد يحي بن أبوه اليعقوبي:[1]

ألا إن آل الشيخ حلة ذا العصر وذلك لا يخفى عليك سنى الفجر

لهم رتب يعلو على النجم قدرها ويعلو على هام الفراقد والنسر

وأخلاق صدق يقصر الوصف دونها رقاق كما يجري النسيم إذ يسري

انتقل الشيخ البكاي بعد وفاة جده الشيخ سيد المختار سنة 1811م 1226هـ[2] إلى حلقة درس والده الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيد المختار الذى آلت إليه خلافة السجادة القادرية البكائية إلا أن وفاة الشيخ سيد محمد المفاجئة في يونيو 1826م جعلت ابنه الأكبر الشيخ سيد المختار الصغير المعروف بالسلطان بادي يخلفه في قيادة الزاوية الكنتية في تنبكت والذي دامت خلافته 21 سنة حيث توفي عام 1847م وآلت الخلافة إلى الشيخ أحمد البكاي الشيء الذي أثار بعد عدة سنوات الكثير من المشكلات بين الشيخ أحمد البكاي وابن اخيه حمادي وقت كان فيه ابنه لايزال طفلا صغيرا أدت إلى شق أسرة البكاي مما خلق من حمادي وأتباعه جماعة معارضة سياسيا ودينيا للشيخ أحمد البكاي ولكن رغم ذلك فقد استطاع الشيخ احمد البكاي بشخصيته الكارزمية وتفقهه في الدين أن يسيطر سيطرة كاملة على خلافة السجادة القادرية في تنبكت بل وفي بلاد السودان الغربي والأوسط بصفة إجمالية خاصة في الفترة التي سبقت انتشار الطريقة التجانية على يد المجاهد التكروري الحاج عمر. والفضل يرجع كذلك إلى الشيخ أحمد البكاي في استعادة مدينة تنبكت لازدهارها الثقافي والاقتصادي الذي فقدته منذ انهيار امبراطورية السونغاي نهاية القرن السادس عشر الميلادي. وقد أكد ذلك الرحالة الألماني بارث الذي زار المدينة حينذاك بقوله إنه لم يرجع فقط لمدينة تنبكت أهميتها التجارية التي اشتهرت بها من قبل بل خلع عليها أيضا الكثير من الأبهة والأهمية، فقد أصبحت في عهده مقرا لشيخ من مشايخ الدين في هذا الجزء من العالم لا يقل أهمية عن أهمية البابا بروما بالنسبة للأوروبيين. فقد امتدت سلطاته الروحية والسياسية لتشمل مناطق شاسعة من الغرب الافريقي.

---

[1] – فردوس حناني وبن نعيمة عبد المجيد: محمد الخليفة الكنتي: شيخ الطريقة القادرية بغرب إفريقيا ومريديه، مقال منشور بمجلة الحضارة الإسلامية، العدد 29، رمضان 1437/ يونيو 2016

[2] البرتلي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق: فتح الشكور في معرفة أعيان وعلماء التكرور. تحقيق د. عبد الودود ولد عبد الله و د. أحمد جمال ولد الحسن. مركز نجيبويه ص: 272

2- تأثيره الثقافي والروحي: يرتبط معظم السكان في غرب إفريقيا برجال دين بواسطة إحدى الطريقة القادرية أو التيجانية بل إن هاتين الطريقتين لم تقتصر على الطبقة العامة في غرب إفريقيا وإنما اعتنقها الزعماء الأفارقة فقد اعتنق كل عثمان دان فوديو أمير بلاد الهوسا[1] وأحمد لوبو أمير ماسينا الطريقة القادرية بينما اعتنق التيجانية الحاج عمر الفوتي.

والطريقة القادرية تنسب إلى الشيخ أبي صالح عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن يحي الزاهد بن محمد بن داوود بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب المولود سنة 470هـ 1077م في قصبة من بلاد جيلان التي ينتسب إليها، والمتوفى ببغداد سنة 1165م 561هـ، وقد نبغ عبد القادر الجيلاني في العلم واشتهر بالزهد والورع، وله مؤلفات منها: الغنية لطالب طريق الحق، والفتح الرباني، وفتوح الغيب.[2]

وورد القادرية الأصلي يتألف من:

- أستغفر الله مائة مرة
- سبحان الله مائة مرة
- اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه مائة مرة
- لا إله إلا الله الملك الحق المبين مائة مرة.

ولكل مذهب من مذاهب القادرية ورد خاص بها ينطلق أساسا من الورد الأصلي للشيخ عبد القادر الجيلاني.

وقد لعبت الطريقة القادرية دورا كبيرا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في إفريقيا الغربية ومنطقة السودان الغربي وموريتانيا والسنغال بالأخص، وإليها يعود كثير من الفضل في انتشار الإسلام في المنطقة، ويشهد على ذلك تخوف بعض الإداريين والكتاب الفرنسيين من انتشار هذه الطريقة وتهديدها للمصالح الاستعمارية، ومن ذلك ما كتب المسيو تائيلي:" إن الإسلام مدين في كل فتوحاته السلمية وانتشاره في الأقطار لجماعة الصوفية، فمشايخ الطرق الصوفية هم في الحقيقة الذين يديرون حركة الإسلام الحية، ولا يخفى ما في عملهم هذا من الخطر على مصالح الأوروبيين".

---

[1]- سبعة أقاليم أبركها وأكرمها إقليم كاشنة، وتقع في المنطقة المحصورة بين الصحراء الكبرى شمالا وبين الربوع الساحلية لخليج غينيا وهضبة حوصا جنوبا وبين برنو في الشرق وثنية نهر النيجر في الغرب حسين مراد: دولة كانم الإسلامية تطورها السياسي والحضاري حتى نهاية القرن 15م بحوث في الدراسات الإفريقية معهد البحوث الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 1997، ص: 5. . غلادنت (شيخو أحمد سعيد): حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، دار المعارف، القاهرة، د، ت، ص: 40 . 50.

[2] – الكتبي: فوات الوفيات، ت محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السادة، القاهرة، مصر، 1951، د. ط. ج: 2، ص ص: 4، 5

ويقول توماس أرنولد في كتابه الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا: " كانت هناك طرق صوفية تعمل على نشر الاسلام، ومن أبرز هذه الطرق الطريقة القادرية، فهي أوسع الطرق انتشارا في إفريقيا عموما وموريتانيا خصوصا..."[1].

وقد انتشرت الطريقة القادرية في إفريقيا الغربية منذ القرن الخامس عشر بواسطة المهاجرين الذين قدموا من أتوات[2] ثم انتقلوا إلى ولاته ثم تنبكت التي أصبحت مركزا رئيسيا لهم، كما انتشرت القادرية من السنغال حتى مصب نهر النيجر وقد نهضت مراكز رئيسية لتنظيم دعوة القادرية في كل من تمبكتو وكنكان وفوتا جالون وفي بلاد الماندنجو وكانت المدن تؤلف مراكز دينية وسط شعب وثني رحب بالقادرية التي من أشهر روادها محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت 909هـ) الذي اتجه بجهوده إلى وسط الصحراء[3]، وقد أخذ عنه في أتوات الشيخ سيد أعمر ولد الشيخ سيد أحمد البكاي في القرن العاشر الميلادي الذي أسس فرع القادرية البكائية الذي بلغ أوج مجده مع الشيخ سيد المختار الكنتي (1730- 1811)[4].

ويقول الشيخ سيد المختار الكنتي في الارشاد عن لقاء سيد أعمر الشيخ بالمغيلي:" (...) ثم حج، ورجع إلى المغرب، فجال في بلاد التكرور، فلقي بها الشيخ الجليل القطب الكامل سيد محمد بن عبد الكريم المغيلي، وقد أقبل من بلاد هوص[5] يريد التكرور، وبلاد المغرب الأقصى برسم دعوى الناس إلى الاسلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحمل الناس على السنة والحجاب...".[6]

---

[1] محمد الأمين محمد فاضل، الطرق الصوفية في موريتانيا، والتعريف بمشايخها، مقال منشور بمجلة العلوم الإنسانية والطبيعية (المجلد2، العدد 4) بتاريخ: ابريل 2021، ص، ص: 557 . 559

[2]- اتوات: يطلق هذا الإقليم على أجزاء عديدة من ولايتي أدرار وتمنراسب جنوب الجزائر. وتحتل موقعا جغرافيا استراتيجيا ما بين شمال الصحراء والساحل الإفريقي المسمى ببلاد السودان (لمعرفة تفاصيل أكثر راجع: أحمد بوسعيد، الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ العام، جامعة أدرار، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية/ الجزائر، 2012)

[3] – إلهام محمد علي ذهني: جهاد الممالك السودانية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (1850-1914)، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1988، ص 34.

[4] – علي بدوي علي سلمان: الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا، أطروحة ماجستير، د، م، 2003، ص 46.

[5] – هي نفسها الهوسا

[6] – أج ولد محمد ولد أمينوه: دور القادرية الكنتية في التبادل الثقافي بين بلاد شنقيط والمغرب خلال القرنين 8 و19 – مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية – العدد الثامن – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة نواكشوط، ص: 5

وبعد الشيخ سيد المختار تولى ابنه الشيخ سيد محمد قيادة الزاوية الكنتية البكائية في تنبكتو والذي اشتهر بدبلوماسيته وتوفي عام 1826م ليتولى ابنه الكبير الشيخ سيد المختار الصغير الذي توفي سنة 1847م ليكون الشيخ أحمد البكاي رابع زعيم روحي للزاوية الكنتية البكائية والذي دافع عن طريقته بالقلم والسيف.

ويعتقد يحي بن البراء أن هذه الطريقة تنسب إلى سيدي أحمد البكاي بن سيد محمد الكنتي (ت 920هـ/ 1514م) الذي لا يعرف عنه "إلا رحلته السياحية التي قادته من الشمال (مشارف وادي نون الساقية الحمراء) إلى قرية ولاتة[1]، فاستقر بها بعد أن رغب فيه أهلها، عندما رأوا من لائح بركته وصلاحه، فرضي بالمقام معهم، إلى أن توفي وقبره هنالك مزور مشهور"[2].

وقد عرفت القادرية الكنتية فيما يبدو فتورا بعد حقبة الرعيل الأول من المشايخ الكنتيين إلى أن تجددت على يد الشيخ سيد المختار الكنتي وهو المختار بن أحمد بن أبي بكر بن محمد بن حبيب الله بن الوافي بن سيد اعمر بن أحمد البكاي بن سيد محمد الكنتي ينتهي نسبه عند عقبة بن نافع الفهري المولود سنة 1142هـ والمتوفى سنة 1226م وصفه البرتلي صاحب فتح الشكور بـ" القطب الرباني والغوث الصمداني الولي الصالح ذو البركات الشهيرات شيخ الأشياخ.."[3]

توسعت الزاوية القادرية المختارية كثيرا في عهد الشيخ سيد المختار الكنتي جد الشيخ أحمد البكاي فتجاوزت نطاق أزواد".. ثم تأسست فروع أخرى لها في تنبكت وماسنا، وارتادها مختلف الطلبة من غرب إفريقيا، ومن بينهم أبناء العائلات الوثنية في سيغو.."[4].

وعلى ما يبدو، فقد كان الشيخ سيد المختار يحمل فكرا إصلاحيا قوامه فكرة التجديد انطلاقا من الحديث النبوي: " إن الله يبعث على رأس كل مائة من يجدد لها أمر دينها"[5] فقد كان الشيخ سيد المختار يعتقد أنه مجدد تلك المائة سنة. يقول في أبيات له:

رأيت المصطفى في النوم حقا فبشرني وأدناني إليه

---

[1] – تقع إلى الشمال الغربي من تنبكت وتعني كلمة ولاته الأرض المرتفعة وتسمى بيرو انظر السعدي "الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي": تاريخ السودان، تحرير وتعليق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012، ص: 65

[2] – محمد الأمين محمد فاضل: الطرق الصوفية في موريتانيا والتعريف بمشايخها، مرجع سابق، ص: 561.

[3] – البرتلي، مصدر سبق ذكره، ص ص: 272، 273، 274

[4] – فردوس حناني وبن نعيمة عبد المجيد: مرجع سبق ذكره.

[5] – أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت ٢٧٥هـ) سنن أبي داوود/ المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، الجزء الرابع، ص: 109/ كتاب الملاحم/ باب ما يذكر في قرن المائة: حديث رقم 4291

إلى أن يقول:

إنك المبعوث صدقا تجدد سنتي فاصبر عليه

وأقبل بالثناء على ضيوفي وأخبر أنهم من صفتيه

ولوح نحوهم ببهاء نور وأتحفهم بنظرة لحظتيه [1]

ولم تقتصر شهرة الزاوية الكنتية على إفريقيا الغربية وحدها، بل كانت ذائعة الصيت في شمال إفريقيا وفي مجال اتراب البيظان، ولا أدل من ذلك على كثرة العلماء من شتى القبائل البيضانية الذين أخذوا الفقه وعلوم القرآن واللغة والأوراد القادرية من الشيخ سيد المختار وابنه الشيخ سيد محمد وحفيديه بادي والبكاي وفي مقدمتهم عثمان دان فوديو (ت 1817م) والشيخ غالي ولد محمد فال البصادي (ت 1825 م) والشيخ سيد أحمد بونعامه (ت 1840م)، الشيخ أحمد لوبوا لماسني (ت 1844م)، والشيخ سيديا بن الهيبه الانتشائي الأبييري (ت 1868م)، والشيخ محمد المختار بن بلعمش (ت 1870م) وغيرهم.

وفي الشمال الإفريقي نجد العربي المشرفي[2] يشيد بالزاوية الكنتية ويثني على شيخها الشيخ سيد المختار وينظم سلسلة مشايخ الطريقة القادرية المختارية الكنتية من خمسة وستين بيتا مطلعها:

الحمد لله الذي من اتصل بحبله المتين لا بد وصل[3]

وقد سار كل من الشيخ سيد محمد الخليفة على نهج والده في ترسيخ دعائم الزاوية الكنتية خلال مدة خلافته من 1811م وحتى وفاته 1826م، ومن بعده ابنه الشيخ سيد المختار الصغير الملقب بادي من 1826م وحتى وفاته 1847م، ثم من بعدهم صاحبنا الشيخ سيد أحمد البكاي من 1847م وحتى وفاته في ساحة المعركة ببلدة سارا دبنا بإقليم ماسنة في 1865م.

وخلال الثماني عشرة سنة التي تولى فيها قيادة الزاوية القادرية المختارية خلف أحمد البكاي إرثا ثقافيا وفكريا غزيرا ومتنوعا وثروة علمية هائلة ذكر أحد الباحثين أنه يوجد منها ستون مؤلفا محفوظا بمركز أحمد باب التنبكتي من ضمنها ثلاثين قصيدة، وعشرين مراسلة، وثلاثة أدعية، وثلاث فتاوى..إلخ.[4]

---

[1] – د. أج ولد محمد ولد أمينوه: مرجع سبق ذكره

[2] – العربي بن عبد القادر بن علي بن محمد بن مسعود المشرفي الحسني المولود حوالي 1805م بقرية الكرط بالجزائر والمتوفى 1895م في مدينة فاس بالمغرب بعد هجرته نتيجة احتلال فرنسا للجزائر، وقد ألف في الرد على أكنسوس في إطار السجال القادري التيجاني (انظر: هشام البقالي، مساهمة العربي المشرفي في الحياة الفكرية لمغرب القرن التاسع عشر، دراسة ببلوغرافية/ المجلة الجزائرية للمخطوطات، المجلد 16، العدد 1 جوان 2020، ص ص: 44 – 61)

[3] – فردوس حناني وبن نعيمة عبد المجيد: مرجع سبق ذكره.

[4] – . د. أج ولد محمد ولد أمينوه: مرجع سبق ذكره، ص: 10

وصادفت بداية خلافة الشيخ أحمد البكاي للطريقة القادرية المختارية ظهور الطريقة التيجانية في السودان وانتشارها ومحاولة اكتساح منافسيهم من القادرية وخضد شوكتهم بوصفهم أبرز منافسيهم، ولهذا تعين على الشيخ أحمد البكاي الذب عن طريقته بالقلم والسيف باعتباره الشيخ الأعلى للقادرية في المنطقة فدخل في سجالات مريرة مع التيجانية العمرية في السودان ومع التيجانيين في المغرب. وقد خاض الشيخ أحمد البكاي معركة شرسة ضد التيجانية في المغرب على المستوى الفكري لكيلا تتمدد إلى ما وراء الصحراء من خلال مراسلته لعلماء المغرب الذي انطلقت منه التيجانية ودخل معهم في مساجلات فقهية ودينية كبيرة غاية في الروعة والإتقان من ناحية علمية وفكرية، وكان من نتائجها المباشرة تنشيط الساحة الثقافية بالمنطقة.

وكنماذج من تلك المساجلات نقرأ في رسائله إلى علماء المغرب ومشايخه من أتباع القادرية مثل: الفقيه الصوفي الحاج محمد بن أحمد الصحراوي[1] ومقدم الزاوية المختارية الحاج محمد عمور[2] وإمام الزاوية مولاي المدني العلوي الشريف والفقيه السيد عبد الخالق بن أحمد الدباغ المراكشي[3] والفقيه السيد عبد السلام بن طاهر ونقيب الشرفاء مولاي عبد الكريم بن مولاي الطايع.

وهذه الرسالة مؤرخة بمتمم شوال سنة 1270هـ/ 1854م، وفيها حث كل هؤلاء العلماء على التماسك ونبذ الفرقة والخلاف والتمسك بالطريقة، ثم يذكر أنه قرأ للتيجانية الطريقة الصوفية الصاعدة في المغرب آنذاك وربما قصد كتاب جواهر المعاني[4] فوجد فيه ذكرا لعبد القادر الجيلاني بل وتقديرا له حيث يسمونه "سلطان الأولياء" ويقول في تلك الرسالة ما نصه:" .. فتعجبت منهم وقلت سبحان الله كيف كتبوا بلا إرادة منهم فإنهم يدعون أن لا مثيل للتجاني في الأشياخ ولا لأصحابه في الأصحاب.."[5]

---

[1] – سليل أسرة الصحراوي في مدينة المدية بالجزائر حوالي 70 كلم جنوب الجزائر، وقد تولى منصب حاكم المدينة في 1837م خلال حكم الأمير عبد القادر بن محي الدين (انظر: مدونة تاريخ مدينة تيطري والمدية مقال منشور بتاريخ: 08 نوفمبر 2021).

[2] – الشيخ محمد بن يعقوب المتوفى سنة 1888م ومؤسس الزاوية برباط الفتح (انظر مدونة مجمع الشيخ سيد المختار الكنتي: مقال بعنوان تاريخ القادرية في المغرب)

[3] – من أعيان زاوية مراكش، وكان يقدم دروسا في الفقه والتصوف بالزاوية القادرية بمراكش (انظر الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام: العباس بن أحمد السملالي، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، الجزء 8، ط 2، المطبعة الملكية – الرباط، 1993م، ص ص: 54 –55)

[4] – جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني كتاب ترجم فيه على حرازم بن العربي براده المغربي الفاسي (ت 1801 م) لشيخه أحمد التيجاني مؤسس الطريقة المنسوبة إليه.

[5] – د. أج ولد محمد ولد أمينوه: مرجع سبق ذكره. ص: 12

وهو هنا يحاول أن يبرز التناقض الذي لاحظه لدى التيجانية في تقدير شيخ القادرية والإقرار له بالتقدم على التيجاني ومع ذلك اتبعوا الأخير!

ثم يواصل الشيخ البكاي في ثنايا رسالته مشعرا أتباع طريقته وكل مطلع على رسالته بأنه لم يبق من الطرق الصوفية طريق موصل بغير انقطاع إلا طريقة شيخه عبد القادر الجيلاني، خلافا لما حدث لبعض الطرق الأخرى التي انفرط عقدها وانقطعت أيما انقطاع، كما يذكرهم أنه هو خليفة الجيلاني مثلما كان أخوه وأبوه وجده من قبله ومن الواجب طاعته، وأنهم على طريق الحق البينة والواضحة.

وفي سياق آخر، يحاول البكاي أن يفت في عضد التجانيين عن طريق التأكيد على وهن حجتهم القائمة على الشائعات المغرضة التي يروجون لها، وهي فتح أبواب الرزق، والبركات على كل من انتسب للطريقة التجانية، ويعد الشيخ البكاي الداخل في طريقة بلا شيخ، ولا سند لغرض الحصول على الرزق أنه مصاب بخبال.

والرسالة المذكورة تمتدح القادرية، وتثني عليها وعلى مآثرها، وشيخها عبد القادر الجيلاني حتى يتمكن هؤلاء المشايخ التي وجهت إليهم الرسالة من استقطاب التلاميذ لاتباع القادرية، ومن ناحية أخرى يهاجم الطريقة التيجانية عن طريق مقارنتها بطريقتهم القادرية، وعرض كل أفعال أهلها على ميزان الشرع والدين لإظهار افتقارهم إلى التأصيل ولقربهم من البدع المخالفة للسنة.

ولعل الأهداف من هذه الرسالة باختصار هو تعبئة مشايخ القادرية في المغرب وحثهم على التصدي للتيجانية بالحجة والبرهان ومقارعتهم لها فكريا حتى يحجموا من سرعة انتشارها الذي بدا مقلقا للبكاي وأخيه من قبله سيد المختار الصغير الملقب بادي.

وقد بلغت هذه الرسائل بين الشيخ البكاي في مجملها إلى عشرة رسائل[1] بينه وبين أركان طريقته في مراكش والرباط وفاس مع الشخصيات المتقدم ذكرهم.

وقد وجه الشيخ أحمد البكاي لاحقا رسالة في الرد على التيجانية أرسلها إلى (أكنسوس) شيخ التيجانية في مراكش وفيها اعتبر البكاي أن مزاعم التيجانية في الاجتهاد الشخصي وغيره إنما هي من قبيل البدع ولا يجوز الأخذ بها لأنها مخالفة للاسلام وقد أبدى في هذه الرسالة مدى التمكن الذي كان يتمتع به في الميدان الفقهي وكذلك براعته في الأسلوب اللغوي السلس والمتين لمراسلته مع أكنسوس سيدي محمد بن أحمد بن يونس بن مسعود أكنسوس السوسي) المولود سنة 1796م-1211هـ والمتوفى في 1877م- 1294هـ السياسي والوزير السابق للمولى سليمان، وقد تفرغ أكنسوس للتصوف والعلم

---

[1] – انظر تقديم كتاب الجواب المسكت لأكنسوس على موقع المكتبة السكيرجية التيجانية: https://www.library-skiredj.com/2021/07/blog-post_31.html

واستقر بمراكش منذ سنة 1248هـ/ 1833م في حي المواسين مؤسسا زاويته هناك، وكانت مراكش قد عرفت كمدينة للتصوف حيث تنتشر بها زوايا لمختلف الطرق الصوفية لعل أوفرها حظا في المريدين القادرية، وبسبب موقعها الفريد كبواية للمغرب على الصحراء والسودان الغربي توسعت التيجانية أكثر بعد أن وصلت لبلاد شنقيط عن طريق الشيخ محمد الحافظ ولبلاد السودان عن طريق الحاج عمر الفوتي.

وكان الشيخ البكاي في رسالته الأولى قد كتب إلى أتباع القادرية في المغرب أن يسلموا له على الشيخ أكنسوس مبديا قدرا كبيرا من التبجيل والتقدير له، قد كتب لهم ما نصه:" وسلموا مني على أخينا في الغيب المبرأ من العيب، الفقيه النبيه الصالح الراجح سيدي محمد أكنسوس، وأخبروه عني أني أحبه في الله وأحبوه أنتم، ولا يزدهكم فيه أنه على طريق التجاني، فإن أخوة الإسلام تجمعنا إني أندبه إلى طريق الشيخ عبد القادر، وأخذ ورده"[1].

استهل الشيخ البكاي رسالته إلى أكنسوس بكل معاني التقدير والاحترام مبينا أن هذه الرسالة إنما هي للتنبيه، يقول في رسالته:".. والعالم ربما كان واهما في علمه حتى إذا وجد منبها تنبه لحينه وتفطن في يقينه.."[2]

وكان من أبرز الأفكار التي قدمها الشيخ البكاي في رسالته لأكنسوس:

- التيجانية ليست طريقة، ويعبر عن ذلك بقوله:" .. وأما الطريق الذي يذكر التجانيون فليست بطريق، وإنما ذكروا مواجدا ورقصا وهجرانا لأولياء الله تعالى هذا ما بلغني من طريقهم.." ولذلك فهو يربأ بالشيخ أكنسوس أن يتبع مثل هذه الطريق إلا أن يأخذ بورد التجاني ويعرضها على شيخ ماهر في التصوف ليرخص له في أخذه، ومن لم يعترض على شيخ في أخذ الأوراد عليه انتقاص.
- أكنسوس لم يأخذ عن التيجاني، فلم يلقه ولم يلق أحد العلماء الثقات ممن لقيه، والعلماء لا يأخذون إلا من المصدر الموثوق أو بسند صحيح من الثقات، يقول:".. ولا شيخ في طريقه، فإن لكل صاحب ورد طريقا تشاكل ورده وتناسبه ..".
- ينفي الشيخ البكاي عن الشيخ التجاني صفة التربية الصوفية وإن كان يعترف أنه من أهل الصلاح، وهو بالنسبة له يحبه ويجله.
- يؤكد أن منطلق خطابه ليس حسدا للتيجانيين أو شيخهم وإنما حب النصيحة وإسداء المعروف.

---

[1] – د. أج ولد محمد ولد أمينوه: مرجع سبق ذكره. ص: 13

[2] . نفس المرجع والصفحة.

- يشيد الشيخ البكاي بشيخه الجيلاني وينوه إلى فضله على سائر الأشياخ ويرجو أن يعدل أكنسوس إلى اتباعه بدل شيخه الذي لا يعرف له شيخ ويعتبر ذلك في أعراف الطرق الصوفية قادحا ومنفرا، فلا مجال للاجتهاد في مجال العقائد عنده.
- يختم الشيخ البكاي بإرشاد أكنسوس إلى أحد مشايخ القادرية في المغرب يدعى عبد الله بن الفاعم للكلام معه لعله يجد في ذلك عزوة عن شدة لهجة الرسالة ويناظر تلميذ الشيخ البكاي عن قرب حتى يشفي الغليل.

يظهر من هذه الرسالة أن البكاي كان يطمح من خلال مبادرته هذه بمراسلة أكنسوس إلى في مركز من مراكز التيجانية بالمغرب إلى استمالة أحد أركان الطريقة التيجانية لإحداث شرخ بها، وبالتالي الحد من الانتشار السريع للتيجانية والذي يهدد القادرية.

لم يكن أكنسوس في بادئ الأمر يستعجل الرد على رسالة الشيخ البكاي، إلا أن بعض التيجانيين ألح عليه في الرد بسبب أن بعض القادرية في مراكش صاروا يخرجون إلى الأسواق وينادون فيها أن طريقتهم هي أحسن الطرق وأن من رجع عنها إلى التيجانية يخشى عليه من الكفر وهو ما شوش على المريدين حديثي العهد بالتيجانية[1]، فألف أكنسوس كتابه في الرد على البكاي والدفاع عن الطريقة التيجانية أسماه الجواب المسكت.

وعموما لقد تميز منهج أكنسوس في الاعراض عن منتقدي التيجانية لأنه كان مقتنعا أن الجدال معهم بلا طائل، ومن خبرته في الرد على هؤلاء المنتقدين مثل: إدييج الكمليلي وأبي القاسم الزياني وأحمد بن عبد السلام البناني استطاع أكنسوس أن يحضر ردا قويا فكريا وعلميا على الشيخ البكاي حيث لم يكن بمقدور أكنسوس تجاهل عميد الطريقة القادرية في المنطقة نظرا لمكانته العلمية والروحية وهذا ما عبر عنه من خلال قوله: " وما كانت مقاولتنا وجوابنا للسيد أحمد البكاي حفيد الشيخ المختار الكنتي إلا لكونه عالما يفهم ما يقال له، ويعلم ما يقول، وقد قيل من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا"[2].

أرسل أكنسوس رده المسمى" الجواب المسكت في الرد على من تكلم في طريقة الإمام التجاني بلا تثبت" واعتمد فيها تكتيكا مضادا لما قام به الشيخ البكاي حيث رد بلباقة وجرأة واستمال البكاي إلى طريقة التيجانية، فقد أبان عن فرحه وسروره برسالة الشيخ البكاي الذي يعتبره من " أولئك الأئمة العالية الأقدار التي عليها المدار" معترفا بمكانته في علوم الظاهر والباطن ومقدار أسرته البارزة.

---

[1] – ربيع الرشيدي: جريدة الاتحاد الاشتراكي: مقال بعنوان: بين محمد أكنسوس والبكاي الجزء السابع منشور بتاريخ: 2022/04/09

[2] – ربيع الرشيدي: جريدة الاتحاد الاشتراكي: مقال بعنوان: بين محمد أكنسوس والبكاي الجزء الثالث، منشور بتاريخ: 2022/04/05

وبعد هذه المجاملات واللباقة أراد أكنسوس استمالة البكاي منطلقا من القاعدة الزروقية قائلا:" العلم بالمزية لا يبيح السكوت بعد تعين الحق إلا بعد العلم بحقيقة ما عليه الفاعل من غير شك ثم إن وقع إنكار فليس بقادح في واحد منهما كما قال الخضر لموسى عليه السلام" إلى أن يصل إلى أن "الساكت عن الحق كالمتكلم بالباطل وكاتم الشهادة كالشاهد بالزور ومحرم الحلال كمحلل الحرام".

كما نبه الشيخ أكنسوس مراسله الشيخ البكاي إلى نصيحته تحولت إلى فضيحة وخرجت أصداؤها إلى أن وصلت السلطان الذي اعتبر الأمر فتنة بين طائفتين عظيمتين من المسلمين.

واستخدم الشيخ أكنسوس كل مهاراته التي درب عليها-أثناء ممارسته للسياسة وتوليه الوزارة -في الحجاج المنطقي في الرد على دعاوى الشيخ البكاي في رسالته اعترف اكنسوس ضمنيا بمكانة أحمد البكاي في التربية والصلاح والإفتاء وفض النزاعات وشحذ الهمم باعتباره شيخ طريقة ذات أصول تاريخية عريقة. وفي مقام آخر وضمن رسالته الجوابية حاول أكنسوس إيضاح ما التبس على المنكرين والمنافحين للطريقة التجانية حيث رتب أجوبته بشكل منطقي وتسلسلي؛ ففي البداية حاول الدفاع على أحقية التجاني بالتربية الصوفية والقطبانية مؤكدا أنه لا يمكنه نقض علاقته بشيخه أحمد التجاني وأن انخراطه في الطريقة كان بناء على قناعته الشخصية وارتياحه لمظانها وانسجامها مع ميوله وتطلعاته سيما وأنه قرأ لعدة طرق صوفية لم تسم على الطريقة التجانية، وأن قول البكاي بكون القادرية هي أحسن الطرق وأمثلها كلام مردود على صاحبه، ففي منظور أكنسوس، على المريد أن يرى شيخه أكمل الشيوخ، وطريقته أحسن الطرق حتى لا ينقطع المدد لأن من "يدخل في صحبة شيخ من المشايخ وهو يرى أن في الوجود مثل شيخه أو أكمل، يبقى متشوفا إلى ذلك الأكمل في اعتقاده فيراه شيخه متشوفا إليه فيقطع عنه المادة فلا يكون بالأول ولا بالثاني". وبالتالي فمبايعة الشيخ حسب أكنسوس هي مبايعة لله ونقضها هي نقض لعهد الله. ولإضفاء الشرعية على أقواله وظف محمد أكنسوس جهازا مفاهيميا انتقاه من كتب وأقوال كبار الصحابة والتابعين والمحدثين والمتصوفة كأبي الدرداء وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر، وعبد العزيز الدباغ، وأبو العباس الشريشي، ومحي الدين بن عربي[1].

لم يتوقف النقاش على هذا الحد بل رد الشيخ البكاي ردا مطولا بعنوان: "فتح القدوس في الرد على أكنسوس" فلم يستسغ جرأته في الرد عليه بالطريقة التي ذكرنا ليؤكد أنه لم يقتنع بحججه التي ساق، والملاحظ في هذه المرة أن الشيخ البكاي كان جوابه مطولا وأكثر حدة أو عنفا من سابقه على الرغم من أنه أشاد بعلو كعب أكنسوس أدبا وعلما، واستمر البكاي في إنكاره على التجاني أن يكون من

---

[1] – ربيع الرشيدي: جريدة الاتحاد الاشتراكي: مقال بعنوان: بين محمد أكنسوس والبكاي الجزء الخامس، منشور بتاريخ: 2022/04/07

شيوخ التربية، وحشد في هذه المرة من العلوم الفقهية لإنكار مقولات الشيخ التيجاني حتى أطنب في ذلك مظهرا مهارات ووسع باع كبير في مجال الفقه والقواعد الأصولية.

ولعل ذلك ما دعا الشيخ أكنسوس إلى الرد عليه بعنف في جوابه لرسالته "فتح القدوس" واعتمد على أمهات كتب المتصوفة عكس البكاي الذي اعتمد على أمهات كتب الفقه، وعلى أقوال كبار المتصوفة المعتدلين مثل: القاضي عياض والغزالي وابن عبد البر والزرقاني وابن رشد وزروق والشاطبي وغيرهم منبها الشيخ البكاي أن ما استشهد به في ثنايا رسالته لا يقدح في التيجانية خصوصا وإنما هو ضد التصوف والطرق الصوفية بما فيها القادرية، وختم رسالته أن جواب البكاي قد زاغ عن النصيحة وتحول إلى حسد مبيت ملمحا إلى مريديه باعتزال الحوار والجدال مع الشيخ أحمد البكاي وتلاميذه.[1]

إن هذه الجهود الفكرية للشيخ البكاي وأسلافه جعلت الباحثين يعتبرون أن القادرية الكنتية لعبت دورا محوريا في الربط الثقافي بين المغرب العربي وإفريقيا الغربية.

وبعد أن فشلت كل مساعي الشيخ أحمد البكاي السلمية ومناوراته لإيقاف مداها الذي صار في تصور البكاي يهدد الأعناق والأرزاق بعد أن انطلق من فاس في بداية ق19م يخترق كل الآفاق ووجد البكاي نفسه مضطرا لاستخدام القوة ضد شيخ الطريقة التيجانية بالسودان الغربي[2].

3- أحمد البكاي والمستكشف الإنجليزي هنريش بارث: كان الرحالة الجغرافي الألماني" هنريش بارث" ثالث أوروبي يصل إلى مدينة تمبكت سنة 1853م، فقد سبقه إليها الرحالة الإنجليزي" غوردون لاينغ" (Laing) الذي اغتيل في ظروف غامضة قرب تنبكت في 30 سبتمبر 1826، وسبقه كذلك الرحالة الفرنسي رينيه كاييه ("ولد كيجه النصراني" كما يقول الموريتانيون) الذي حل بتنبكت في 20 إبريل 1828 بعد أن مر بموريتانيا وأقام أشهرا بمنطقة البراكنة.

لقي" هنريش بارث"، أو عبد الكريم كما كان يسمي نفسه تخفيا وتخوفا، حفاوة وضيافة الشيخ سيدي أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد الخليفة. وكانت رحلة" هنريش بارث" بتمويل بريطاني وبرعاية مباشرة من صاحبة الجلالة فكتوريا. وقد تحدث "بارث" باستفاضة عن حفاوة الشيخ الكنتي وضيافته في كتابه "رحلات ومشاهدات في شمال ووسط إفريقيا".

---

[1] – ربيع الرشيدي: جريدة الاتحاد الاشتراكي: مقال بعنوان: بين محمد أكنسوس والبكاي الجزء السابع، منشور بتاريخ: 09/04/ 2022

[2] – سيد أعمر ولد شيخنا: الفكر السياسي في غرب الصحراء، المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الرباط، المملكة المغربية، 2012، ص، ص207-208.

وحسب ما أورده الرحالة بارث الذي عرف الشيخ أحمد البكاي معرفة لصيقة فإن هذا الأخير كان يتمتع بذكاء حاد وحب استطلاع ينم عن شخص شغوف بالمعرفة فضلا عن حسن الخلق والروح المنفتحة نحو الآخر دون تمييز عرقي أو ديني.

وكان" بارث" أقام زمنا طويلا في الحضرة الكنتية مع الشيخ سيدي أحمد البكاي، وقد أعلن الأمير الفلاني أحمدُو بن أحمد لبو، أمير ماسنة، هدر دم الرحالة الألماني فبعث رسالة إلى الشيخ سيدي أحمد البكاي يطالبه فيها بتصفيد" بارث" بالأغلال وإرساله إلى حمد الله عاصمة إمارة ماسنة، وفي تلك الرسالة حديث عن الحكم الفقهي في التعامل مع الذمي، وفيها كذلك نوع من التهديد للشيخ سيدي أحمد البكاي الذي آوى هذا النصراني الكافر. لكن يبدو أن الشيخ الكنتي أفقه من أن تقنعه آراء ابن أحمد لبو الفلاني، وأقوى من أن تخيفه تهديداته. فرد الشيخ البكاي مخاطبا أمير ماسنة ومتحدثا عن "بارث":" إنه جاء إلى تنبكت– كما قلتَ– بغير استئذان ولا إذن وذلك لا يبيح لك ماله ولا سجنه، فإني أنكر عليك أمرك بسجنه وطلبك لماله؛ فإنه حرام عليك وظلم له، فإنه إنما وصل في عهد المسلمين. فإن جميع قبائل النصارى في العهد والصلح إلا الموسكو[1]. بلغني هذا العام أنهم حاربوا السلطان عبد المجيد. وعلى كل فإنك لست بإمام المسلمين، إنما إمام المسلمين مولاي عبد الرحمن أو السلطان عبد المجيد، فمولاي عبد الرحمن هو أهلها بالشريعة، والسلطان عبد المجيد هو الأكبر والأكثر في الملك. وإنما أنت أمير من حمد الله إلى تنبكت: مسيرة خمسة أيام في الأخصاص، في منتهى أرض السودان في المغرب. وإمام المسلمين في المسلمين في أرضهم لا يجوز لك أن تنقض أو تنقص عهده وصلحه مع النصارى وقد صالحهم وعاهدهم كل من السلطانين[2]"*.

---

[1] – يقصد امبراطورية روسيا القيصرية اتي كانت في حالة حرب مع الدولة العثمانية فيما عرف بحرب القرم 1853 – 1856م والتي كان من نتائجها خسائر كبيرة للعثمانيين كفرض استقلال اليونان والحكم الذاتي لرومانيا وبلغاريا (انظر: موقع المعرفة: الحروب الروسية العثمانية (www.marefa.org

[2]– وكالة الطواري الإخبارية: سيد أحمد ولد الأمير: رسوم لشخصيات موريتانية في القرن التاسع عشر.

* المقصود بالسلطانين: سلطان المغرب: المولى عبد الرحمن وكانت جدة جده هي اخناثه منت بكار البركنية المغفرية (عاصر البكاي ثلاثة سلاطين علويين هم المولى سليمان 1797 – 1822، والمولى عبد الرحمن: 1822 – 1859، والمولى محمد الرابع الذي يذكر أنه أخذ الورد القادري من الشيخ أحمد البكاي مباشرة: 1859 – 1873) والسلطان الآخر يقصد به السلطان العثماني: عبد المجيد الأول (وقد عاصر البكاي خمسة من السلاطين العثمانيين هم: السلطان سليم الثالث: 1789– 1807 والسلطان مصطفى الرابع: 1807 – 1808 والسلطان: محمود الثاني: 1808 – 1839 والسلطان عبد المجيد الأول: 1839 – 1861 والسلطان عبد العزيز الأول: 1861 –1876) انظر قائمة السلاطين العثمانيين والعلويين في موقع المعرفة: www.marefa.org

وكغيره من المكتشفين الأوربيين الذين أوفدتهم الجمعية الجغرافية البريطانية إلى القارة الافريقية فقد درج بارث على الدعاية لبريطانيا واصفا إياها بالصديق والنصير للمسلمين في العالم وهو نفس النهج الذى سار عليه من قبل المكتشف البريطاني كلابرتون إبان زيارته للشيخ محمد الامين الكانمي في برنو العام 1824 إذ ظل هذا يؤكد لحاكم دولة برنو فضل بريطانيا في إنقاذ مصر من الهيمنة الفرنسية لهذا فقد أفلح المكتشف بارث هو الآخر في التأثير علي الشيخ أحمد البكاي جعله يعتبر الانجليز أهم أصدقاء المسلمين وأن الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا حينذاك أقوى الحكام الأوربيين في زمانها الشيء الذي جعله يرسل إليها عدة رسائل عن طريق المكتشف بارث من أجل التحية والمجاملة وإبداء الرغبة في خلق علاقات صداقة بين بلاده وبريطانيا. ليس ذلك فحسب، بل قام في العام 1862 بإرسال وفد من خيرة سفرائه إلى ملكة بريطانيا يطلب معاونتها العسكرية في التصدي لجيوش الحاج عمر الفوتي التجاني التي أخذت تهدد بصورة مباشرة إمبراطورية ماسينا الفولانية، فالصراع الديني الذي استمر بين الطريقة التيجانية الآخذة حينذاك في الانتشار في بلاد السودان الغربي والاوسط تحت قيادة الحاج عمر الفوتي التيجانى هو السبب في محاولة الاستنجاد بالملكة فكتوريا لاسيما وأن قادة امبراطورية ماسينا الفولانية كانوا من اتباع الطريقة القادرية البكائية كما ذكرنا من قبل، وأن العون العسكري البريطاني في حال الحصول عليه، سوف يمكنه من ترسيخ قواعد نفوذه السياسي والعسكري في كل منطقة منحنى نهر النيجر التي أخذ الزحف التكروري التيجاني المتصاعد يشكل خطرا داهما بالنسبة لها. غير أن ملكة بريطانيا لم تستجب لمناشدة الشيخ أحمد البكاي ربما بسبب عدم رغبة بريطانيا حينذاك في الدخول في مواجهات مباشرة أو غير مباشرة مع المطامع الفرنسية في تلك المنطقة، لاسيما وأن فرنسا كان لها وجود منذ القرن السابع عشر في مستعمرة سانت لويس بالسنغال وقد كانت حينذاك في مواجهات شرسة مع جيوش الحاج عمر الفوتي في أعالي نهر السنغال[1].

المحور الثاني: أحمد البكاي والصدام مع الحاج عمر الفوتي.

1- استيلاء الحاج عمر على ماسينا حليف أحمد البكاي

لقد تسبب الحاج عمر بحربه على الوثنية وهجومه على سيغو في صراع بينه والدولة الإسلامية الموجودة في ماسينا رغم أن الحاج عمر كان يأمل في انضمام الماسينا إليه في حربه ضد البمبارى الوثنيين[2]. حيث كان لاعتناقه التيجانية أثر كبير في حياته فقد كانت هذه الطريقة ترى ضرورة

---

[1] – عمر عبد الماجد: الشيخ أحمد البكاي والحراك السياسي والديني في السودان الأوسط والأدنين مقال سبق ذكره.

[2]– في جي دي: تاريخ غرب افريقيا، ترجمة وتعليق: يوسف ناصر، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1982، ص: 301.

استخدام القوة والعنف ضد الوثنيين لإجبارهم على الدخول في الدين الإسلامي ولذلك استمر الحاج عمر في شن حروبه ضد البمبارى الوثنيين[1].

رفض حفيد أحمد لوبو المعروف بأحمد الثالث الذي حكم ما بين (1852-1862) طلب الحاج عمر لأنه يعتبر أن مملكة سيغو تحت نفوذ دولة ماسينا الاسلامية وأن تحويلها إلى الاسلام ينحصر في عمله (أحمد الثالث) وحده، وقد أدى هذا الموقف إلى صراع سياسي يغذيه وجود عنصر مذهبي بين التيجانية العمرية من جهة والقادرية ممثلة في شخص أحمد الثالث فبعد أن استولى الحاج عمر على سيغو لم يعد أمامه خيار إلا إرسال قواته ضد الماسنيين[2] خاصة بعدما فر ملك البمبارى وتيلا من سيغو إلى دولة الماسينا وطلب من أميرها أحمد لبو(أحمد الثالث) أن يحميه من خصمه الحاج عمر وأخبره بأنه اعتنق الاسلام ،لكن الحاج عمر أرسل في طلب وتيلا ودعا أمير ماسينا إلى تسليمه مستنكرا مزاعمه بأنه يدين بالإسلام وأصر بأنه وثني العقيدة والممارسة ولا يستحق الاحتماء بالجوار الاسلامي لكن أحمد الثالث أصر على رفضه خاصة بعد أن جمع علماء ماسينا واستفتاهم في شأنه واحتدم الخلاف الفكري بين الطرفين الفوتي والماسنوي حيث جرى تبادل للرسائل بينهما وحاول كل طرف الدفاع عن وجهة نظره شرعيا لكن حسم الخلاف كان في النهاية بقوة السلاح حيث كان الجيش العمري بقيادة ألفا عمر متحالفا مع بعض القبائل كدوغون وبوزو وغيرها أما الجيش الماسنوي بقيادة لبو عم أمير ماسينا أحمد الثالث فكان متحالفا مع البمبارى وقبيلة كنتة تنبكت بقيادة أحمد البكاي وقد التقى الجيشان عند مكان يعرف بجغرابي بالقرب من مجرى نهر بانى وهزم الجيش العمري جيش ماسينا و دخل عاصمتها حمد الله في العاشر من شوال (1278هـ-1862م) بعد أن قتل أميرها أحمد الثالث الذي أصيب في المعركة[3].

2- موقف أحمد البكاي من الاستيلاء على ماسينا

بعد القضاء على أحمد الثالث حليف أحمد الكنتي المعروف بالبكاي زعيم الطريقة البكائية في تنبكت - الذي كان يحثه على محاربة الحاج عمر وجه أحمد البكاي انتقادات لاذعة للحاج عمر حيث اتهمه بأنه رجل عنيد ودجال يريد فقط بناء إمبراطورية [4].

---

[1] -جهاد الممالك السودانية مرجع سبق ذكره، ص 51.

[2] - تاريخ غرب إفريقيا: مصدر سبق ذكره، ص 302.

[3] - عثمان ابريما بارى: جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي دار الأمين، القاهرة جمهورية مصر العربية، 2000، ص ص 228،227.

[4] - عبد الله عبد عبد الرزاق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوربي لإفريقيا عالم المعرفة، الكويت، 1990، ص 77.

وبعث أحمد البكاي برسالة استنكار إلى الحاج عمر لما حدث منه وذكره بعدم جواز اعتبار عائلة أحمد الثالث وخاصة زوجته أسرى في يده[1].

وفي نظر أحمد البكاي الكنتي أن حرب الحاج عمر ضد السودان كانت خاطئة من أوجه عدة من بينها أن الحاج عمر توسع شرقا وترك الفرنسيين خلف ظهره في سان لويس بالسنغال لذلك كان من الأفضل له مواجهة الجيوب الاستعمارية بدل إدخال السودان في حروب مدمرة، وثانيا كان على الحاج عمر أن لا ينقل الحرب من فتح الأقاليم الوثنية -إن صح أنها وثنية ولا تخضع لنفوذ دولة إسلامية- إلى هجوم على دولة ماسينا الاسلامية واجتياحها وإعدام أميرها وعدد من قادتها البارزين. وإلى جانب العوامل السابقة كان أحمد البكاي يخشى من الأجندة الطائفية التيجانية في مشروع الحاج عمر التي لا تخلو حسب وجهة نظره من إكراه وفتنة للناس في دينهم[2].

3- الصدام بين أحمد البكاي والحاج عمر الفوتي

بعد أن سيطر الحاج عمر على العاصمة الماسنية حمد الله قام بعد ذلك بشهور بإرسال عامليه إلى تنبكت لاستحصال الضرائب التي كان أهلها يدفعونها لإمارة ماسينا سنويا، لكن رفض أحمد البكاي وأهل إمامية تنبكت لاستجابة لهذا المطلب جعل الحاج عمر الفوتي يرسل إليهم كتيبة بقيادة قائد جيشه ألفا عمر لكن أحمد البكاي غادر المدينة (تنبكت).

ولجأ إلى أماكن نائية في الصحراء ليستنجد بقبائل الطوارق الصحراوية فاحتل الجيش العمري المدينة في شهر ذي القعدة 1279هـ- 1863م، لكن أحمد البكاي عاد بعد ذلك إلى تنبكت ومعه جيش من الطوارق وقتلوا قائد الكتيبة العمرية ألفا عمر في مكان يدعى ماني قرب بحيرة ديبو وأسروا آخرين وعاد الباقون إلى مدينة حمد الله العاصمة الجديدة للدولة العمرية[3].

لم يكتف أحمد البكاي بتلك العملية التي راح ضحيتها قائد جيش الحاج عمر بل بدأ يخطط لثورة فلانية في ماسينا ضد الحاج عمر وقد جاءته الفرصة المناسبة لذلك عند ما هرب بالوبو[4] وأخاه عبد السلام من السجن في حمد الله حيث كانا محتجزين من طرف الحاج عمر وقد ساعدا أحمد البكاي في تأسيس حلف جديد في ماسينا التي هبت في ثورة عارمة ضد الحاج عمر في عام 1863م واشترك في هذا التمرد البمبارى والفلان المسلمون ولم يعد للحاج عمر أي حلفاء في المنطقة فتحصن في

---

[1] – جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي مرجع سبق ذكره، ص 228.

[2]– الفكر السياسي في غرب الصحراء، مرجع سبق ذكره، ص 207.

[3] – جذور الحضارة الإفريقية في الغرب الإفريقي: مرجع سبق ذكره، ص 229.

[4] – بالوبو: هو قائد جيش أمير ماسينا أحمد الثالث وعمه

حمد الله في الوقت الذي تحرك فيه أهالي تنبكت بقيادة أحمد البكاي لحصار المدينة التي شيد الحاج عمر أسوارا ضخمة حولها وحاصر المدينة تحالف القادريين في ماسينا وفرقة أحمد البكاي من تنبكت ومعه بالوبو واستمر الحصار حوالي تسعة شهور وطول هذه الفترة كان ابن الحاج عمر غائبا في سيغو يحاول القضاء على تمرد هناك وأثناء الحصار أرسل ابن أخيه أحمد التيجاني في 21 يناير 1864م ليطلب مساعدات الفلاني لكنه لم يتمكن من العودة إلى المينة المحاصرة وعند ما أدرك الحاج عمر أن مؤونة الطعام لا تكفي إلا لفترة قليلة وأنه فقد الأمل في المساعدات الخارجية قرر اتباع الطريق الخطر الذي لا سبيل غيره ألا وهو محاولة اختراق الجيش المحاصر وفي 7 فبراير 1864م نجح الحاج عمر في خطته لكن عناصر من الجيش المحاصر من اتباع أحمد البكاي كانت تتعقبه حتى وصل قرية جورو حيث حاصروه في أحد الكهوف قربها وأضرموا النار في مداخله حتى توفي هو ومن معه فيه اختناقا في يوم الجمعة 3 رمضان 1280هـ- 1864م[1].

و بعد هذا الحدث البارز لم يعمر الشيخ أحمد البكاي الكنتي التنبكتوي طويلا حيث توفي في شهر رمضان للسنة 1281هـ- 1865م أي بعد مرور سنة واحدة على وفاة الحاج عمر الفوتي[2].

خاتمـــة

من أكثر الملاحظات والاستنتاجات أهمية والتي استوقفتني في نهاية هذا البحث ما يلي:

- طبيعة شخصية أحمد البكاي والمنفتحة على الآخر والتي تتمثل في معاملته الحسنة للإنجليزي بارث وكانت إشكالية حماية الذمي أبرز أوجهها والتي ربما يكون مردها الانفتاح والتسامح الذي تميزت به الطريقة القادرية.
- أسبقية الطريقة القادرية في الانتشار في منطقة السودان الغربي والتأقلم مع مجتمعاتها الوثنية وقوة رد فعل الطريقة القادرية على التيجانية الدخيلة والآخذة في الانتشار.
- أن كلا من زعماء القادرية والتيجانية رجع إلى القوى الغربية لطلب الدعم فكما طلب الحاج عمر من الفرنسيين تسليحه في حربه ضد الوثنيين طلب أحمد البكاي من فكتوريا ملكة بريطانيا تسليحه ضد الحاج عمر الذي أصبح نفوذه المتزايد يشكل خطر عليه وعلى طريقته في السودان الغربي.
- أن كل القوى الغربية سواء الفرنسية أو الانجليزية رفضت تسليح القادة التيجانيين والقادريين في حروبهم ضد بعضهم وإن كانت تلك القوى خاصة فرنسا هي المستفيد الأكبر من تلك

---

[1] – المسلمون والاستعمار الأوربي لإفريقيا: مرجع سبق ذكره، ص 78

[2] - جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي مرجع سبق ذكره، ص 232.

الحروب التي دمرت الدول الإسلامية في السودان الغربي بحيث أصبح لمطامعها الاستعمارية التوسعية سبيل أكثر تمهيدا.

- أن الشيخ أحمد البكاي كان بعيد النظر فيما يخص التعامل مع خصومه الذين يهددون طريقته ونفوذه السياسي والروحي فكان يلجأ إلى النقاش معهم في كل المسائل الخلافية مستهدفا إقناعهم واستمالتهم قبل الدخول في أي صراع، وبالتالي كان يتمتع بحس دبلوماسي محنك اكتسبه من إرث أسلافه وفترته الطويلة كنائب لخليفة القادرية أخيه الشيخ سيد المختار الصغير (بادي) والتي دامت أكثر من عشرين سنة.
- أن جل المراجع التي سمح لي بها الوقت القصير والجهد القليل بالاطلاع عليها والتي تتطرق للشيخ أحمد البكاي تركز بشكل كامل إما على حروبه مع الحاج عمر أو مساجلاته مع التيجانية وشيخها أكنسوس وهو ما يعني حسب اعتقادي أهمية تلك الحروب لدى الباحثين وتلك المساجلات.

قائمـــة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر:

. البرتلي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق: فتح الشكور في معرفة أعيان وعلماء التكرور. تحقيق د. عبد الودود ولد عبد الله و د. أحمد جمال ولد الحسن. مركز نجيبويه

. السعدي" الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي": تاريخ السودان، تحرير وتعليق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012.

. العباس بن أحمد السملالي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام: مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، الجزء 8، ط 2، المطبعة الملكية – الرباط، 1993م

. الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السادة، القاهرة، د. ط. ج: 2، 1951

. سنن أبي داوود/ المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، الجزء الرابع.

ثانيا: المراجع:

1 . المؤلفات العربية:

- إلهام محمد علي ذهني: جهاد الممالك السودانية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (1850-1914)، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1988
- حسين مراد: دولة كانم الإسلامية تطورها السياسي والحضاري حتى نهاية القرن 15م بحوث في الدراسات الإفريقية معهد البحوث الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 1997

- سيد أعمر ولد شيخنا: الفكر السياسي في غرب الصحراء، المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية الرباط، المملكة المغربية، 2012.
- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا، عالم المعرفة، الكويت، 1990.
- علي بدوي علي سلمان: الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا، أطروحة ماجستير، د، م، 2003.
- مصطفى أبو ضيف أحمد: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، مطبعة دار النشر المغربية، الطبعة الأولى، ج2، 1982.
- هارون ابن الشيخ سيديا: الأخبار المدون في اخبار الموريتانيين ومن جاورهم من النواحي المحيطة بهم، الشركة الإفريقية للطباعة والنشر، د، ن، 1998.

2 . المؤلفات الافريقية:

- عثمان ابريما بارى: جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي دار الأمين، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2000.
- غلادنت (شيخو أحمد سعيد): حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، دار المعارف، القاهرة، د، ت.

3. المؤلفات الغربية المترجمة:

. في جي دي: تاريخ غرب افريقيا، ترجمة وتعليق يوسف ناصر دار المعارف القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1982

. فيليكس ديبوا، تمبكت العجيبة، ترجمة: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، مراجعة: شوقي عطا الله الجمل، الطبعة الأولى 2003، المشروع القومي للترجمة.

4. المقالات المنشورة وغير المنشورة

. أج ولد محمد ولد أمينوه: دور القادرية الكنتية في التبادل الثقافي بين بلاد شنقيط والمغرب خلال القرنين 8 و19– مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية – العدد الثامن – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة نواكشوط

– أحمد بوسعيد، الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ العام، جامعة أدرار، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية/ الجزائر، 2012.

– محمد الأمين محمد فاضل، الطرق الصوفية في موريتانيا، والتعريف بمشايخها، مقال منشور بمجلة العلوم الإنسانية والطبيعية (المجلد2، العدد 4) بتاريخ: ابريل 2021

- ربيع الرشيدي: سلسلة مقالات بعنوان: بين محمد أكنسوس والبكاي، جريدة الاتحاد الاشتراكي، ما بين 2022/24/02 و2022 /04/9

. فردوس حناني وبن نعيمة عبد المجيد: محمد الخليفة الكنتي: شيخ الطريقة القادرية بغرب إفريقيا ومريديه، مقال منشور بمجلة الحضارة الإسلامية، العدد 29، رمضان 1437/ يونيو 2016

- هشام البقالي، مساهمة العربي المشرفي في الحياة الفكرية لمغرب القرن التاسع عشر، دراسة ببلوغرافية/ المجلة الجزائرية للمخطوطات، المجلد 16، العدد 1 جوان 2020

5-المدونات والمواقع الالكترونية:

- مدونة مجمع الشيخ سيد المختار الكنتي: مقال بعنوان تاريخ القادرية في المغرب على الرابط: http://elkintyorg.blogspot.com/2012/07/blog-post_23.html
- موقع المكتبة السكيرجية التيجانية:-https://www.library-skiredj.com/2021/07/blog-post_31.html
- موقع المعرفة: الحروب الروسية العثمانية www.marefa.org
- وكالة الطواري الإخبارية: سيد أحمد ولد الأمير: رسوم لشخصيات موريتانية في القرن التاسع عشر.
- مدونة تاريخ مدينة تيطري والمدية على الرابط:
- https://web.facebook.com/103169235014458/photos/a.103194325011949/2894863790716075/?type=3&locale=ms_MY&__rdc=1&__rdr